ابو طالب (عليه السلام)

<"xml encoding="UTF-8?>

لقد كان بيت أبى طالب موطّد الأساس بالنبوّات مرفوعة معالمه بخلافة الله الكبرى وكانت آصرة النبوة ضاربة فيه من آدم إلى شيث إلى نوح إلى إبراهيم إلى إسماعيل الذبيح إلى ما تناسل منه ممن دان بالتوحيد وكانت له الوصاية فى المحافظة على نواميس الأنبياء وإنّك لا تجد أحداً من عمود النسب الوضّاح الذى يقف عنده الحديث النبوى (1)إلاّ آخذاً بأعضاد الشرف والسؤود حاملاً للحنيفية البيضاء دين السلام والوئام وشرعة الخليل إبراهيم (عليه السلام).

وإنّ الوقوف على بعض ما ذكره التاريخ فى حقّ هؤلاء الرجال يشهد لهذه الدعوى المدعومة بالوجدان فكان (عدنان) يصارح فى خطبته بأن فيمن يتناسل منه النبىّ الكريم خاتم الرسل أجمعين الداعى إلى كلمة الحقّ ورسالة الصدق ثم أوصى باتباعه.

ولكون ولده (معدّ) على نهجه أمر الله تعالى (أرميا) أن يحمله على البراق كيلا تصيبه نقمة بختنصّر وعرّفه بأنّه سيخرج من صُلبه نبيّاً يكون خاتم الأنبياء فحمله إلى أرض الشام إلى أن هدأت الفتنة .(2)

وكان نور النبوّة يشعُّ فى جبهة (نزار) (3)وورد النهى عن سبّ ربيعة ومضر والياس لكونهم مؤمنين والياس أول من أهدى البدن إلى البيت الحرام وأول من ظفر بمقام إبراهيم وقد أدرك (مدركة بن الياس) كل عزّ لآبائه وفى جبهته نور النبىّ محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ساطع وكان (كنانة) بن خزيمة بن مدركة يجاهر بالدعوة إلى دين (الخليل) ورفض عبادة الأصنام وإن من صُلبه نبيّاً يدعو إلى البرّ والإحسان ومكارم الخلاق.

و(فهر بن مضر) كان العرب تهابه لجمعه خصال الخير والنور اللائح على أسارير جبهته ولانتصاره على حسّان بن عبد كلال حين جاء من اليمن لأخذ أحجار الكعبة ليبنى بها بيتاً باليمن يزوره الناس فأسر حسّان وانهزمت حمير وبقى حسّان فى الأسر ثلاث سنين ثم فدى نفسه بمال كثير وخرج فمات بين مكّة والمدينة .(4)

ولم يزل كعب بن لؤى يذكر النبىّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ويعلم قريشاً بأنّه من ولده ويأمر باتباعه وفى المأثور من كلامه: زيّنوا حرمكم وعظّموه وتمسّكوا به ولا تفارقوا فسيأتى له نبؤٌ عظيم وسيخرج منه نبىّ كريم ثم قال:

نهار وليل واختلاف حوادث	سواء علينا حلوها ومريرها
يؤبان بالأحداث حتى تأوَّيا	وبالنعم الضافى علينا ستورها
على غفلة يأتى النبى محمد	فيخبر أخباراً صدوقاً خبيرها

ثم قال:

يا ليتنى شاهد فحواء دعوته	حين العشيرة تبغى الحقّ خذلانا (5)

إنّ هذه السلسلة هى التى أنتجت قصيّاً فعبد مناف فهاشماً فعبد المطلب ثم عبد الله وأبا طالب ومنهما أشرق الكون بخاتم الأنبياء وسيّد الأوصياء صلوات الله عليهم أجمعين. (6)

والذى يجب الهتاف به أن كل واحد من عمود النسب غير مدنّس بشىء من رجس الجاهلية ولا موصوم بعبادة وثن وهو الذى يرتضيه علماء الحق لكونهم صدّيقين بين أنبياء وأوصياء وقد نزّههم الله سبحانه فى خطابه لنبيّه الأقدس: (وتَقلّبک فى الساجدين) فإنّه أثبت لهم بلفظ الجمع المحلّى باللاّم السجود الحق الذى يرتضيه لهم.

وإن ما يؤثر عنهم من الأشياء المستغربة عندنا لا بدّ وأن تكون من الشريعة المشروعة لهم وأن يكون له معنى تظهره الدراية والتنقيب.

وليس آزر الذى كان ينحت الأصنام وكاهنة نمرود أبا إبراهيم (عليه السلام) الذى نزل من ظهره لأن أباه اسمه تاريخ وآزر أمّا أن يكون عمّه كما يرتئيه جماعة من المؤرّخين وإطلاق الأب على العم شائع على المجاز وبه جاء الكتاب المجيد: (إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهک وإله آبائک إبراهيم وإسماعيل لفظ الأب ولم يكن أبا يعقوب وإنما هو عمّه كما أطلق على إبراهيم لفظ الأب وهو جدّه.

وأمّا أن يكون آزر جدّ إبراهيم لأمّه كما يرتئيه المنقبون والجدّ للأمّ أب فى الحقيقة وممّا يؤيّد أنّه غير أبيه قوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) فميّزه باسمه ولو أراد أباه الذى نزل من ظهره لاستغنى بإضافة الأبوّة عن التسمية بآزر.

كل ذلک مضافاً إلى مصارحة الرسول الكريم بطهارة آبائه عن رجس الجاهلية وسفاح الكفر فإنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لما أراد الله تعالى أن يخلقنا صوّرنا عمود نور فى صُلب آدم فكان ذلک النور فى جبينه ثم انتقل إلى وصيّه شيث وفيما أوصاه ألاّ يضع هذا النور الإلهى إلاّ فى أرحام المطهرات من النساء ولم تزل هذه الوصية معمولاً بها يتناقلها كابر عن كابر فولدنا الأخيار من الرجال والخيّرات المطهّرات المهذّبات من النساء حتى انتهينا إلى صُلب عبد المطلب فجعله نصفين نصف فى عبد الله فصار إلى آمنة ونصف فى أبى طالب فصار إلى فاطمة بنت أسد .(7)

ولم يزل هذا الحال كما وصفناه حتى أقبل دور شيخ الأبطح أبى طالب وولده أمير المؤمنين والإمامين السبطين سيّدى شباب أهل الجنّة والأئمّة من ولد سيّد الشهداء حتى يقف العدد على ناموس الدهر وولى الأمر فى كل عصر عجّل الله فرجه.

هنا يقف اليراع عن تصوير عظمة هذا البيت المنيع ويرتجّ على الكاتب ويعى الشاعر فإن حقيقة القداسة بين طرفى النبوّة والإمامة التى جمعها هذا البيت لم تدع مسرحاً لقائل أو متسعاً لواصف لتقاعس القدرة البشرية عن نعت ما هو فوق مستواها ولا يمكنها الخبرة بحقائق أنوار عالم الملكوت.
نعم لها الإفاضة فى مقدار ما يمكنها من التوصّل إليه ولو فى الجملة من أنّه بيت نبوّة وإمامة، بيت علم ودين، بيت عزّ وسؤدد.

بيت علا سمک الضراح رفعة	فكان أعلا شرفاً وأمنعا
أعزَّه الله فما تهبط فى	كعبته الأملاک إلا خضَّعا
بيت من القدس وناهيک به	محطّ أسرار الهدى وموضعا
فكان مأوى المرتجى والملتجى	فما أعزّ شأنه وأمنعا (8)

وهذه الصفات الكريمة هى التى أهّلت أبا طالب عليه السلام لحمل أعباء الوصاية عن الأنبياء (عليهم السلام) بعد أن تلقّاها عن أبيه عبد المطلب الذى كان وصياً من الأوصياء وقارئاً للكتب السماوية كما أخبر أبو طالب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلک إذ قال له: كان أبى يقرأ الكتب جميعاً وقال إن من صلبى نبيّاً لوددت أنّى أدركت ذلک الزمان فآمنت به فمن أدركه من ولدى فليؤمن به .(9)

وكان أبو طالب كأبيه (شيبة الحمد) عالماً بما جاء به الأنبياء وأخبروا به أُممهم من حوادث وملاحم لأنّه وصىّ من الأوصياء وأمين على وصايا الأنبياء حتى سلّمها إلى النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) .(10)

وفى ذلک يقول درست بن منصور لأبى الحسن موسى (عليه السلام) أكان رسول الله محجوباً بأبى طالب قال عليه السلام: لا ولكن كان مستودع الوصايا فدفعها إلى النبىّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قلت دفعها على أنّه محجوج به قال عليه السلام لو كان محجوجاً به ما دفعها إليه قلت فما كان حال أبى طالب قال عليه السلام أقرّ بالنبىّ وبما جاء به حتى مات .(11)
وقال شيخنا المجلسى أعلى الله مقامه: أجمعت الشيعة على أن أبا طالب لم يعبد صنماً قطّ وأنّه كان من أوصياء إبراهيم الخليل (عليه السلام)، وحكى الطبرسى إجماع أهل العلم على ذلک، ووافقه ابن بطريق فى كتاب

الاستدراک .(12)
وقال الصدوق: کان عبد المطلب وأبو طالب من أعرف العلماء وأعلمهم بشأن النبیّ وکانا یکتمان ذلک عن الجهّال والکفرة .(13)
ومما یشهد علی ذلک الحدیث الصحیح عن أمیر المؤمنین (علیه السلام): واللّه ما عَبَدَ أبی ولا جدّی عبد اللّه ولا عبد مناف ولا هاشم صنماً وإنّما کانوا یعبدون اللّه ویصلون إلی البیت علی دین إبراهیم متمسّکین به .(14)
ویقول أبو الحسن الرضا (علیه السلام): کان نقش خاتم أبی طالب: (رضیت بالله ربّاً وبابن أخی محمد نبیّاً وبابنی علیّ وصیّاً له) .(15)
مضافاً إلی أن قریشاً لما أبصرت العجائب لیلة ولادة أمیر المؤمنین (علیه السلام) خصوصاً لما أتوا بالآلهة إلی جبل أبی قبیس لیسکن ما حلّ بهم ارتجّ الجبل وتساقطت الأصنام ففزعوا إلی أبی طالب لأنّه مفزع اللاجی وعصمة المستجیر، وسلوه عن ذلک فرفع یدیه مبتهلاً إلی المولی جلّ شأنه قائلاً: إلهی أسألک بالمحمّدیة المحمودة والعلویة العالیة والفاطمیة البیضاء إلاّ تفضّلت علی تهامة بالرأفة والرحمة فسکن ما حلَّ بهم، وعرفت قریش فضل هذه الأسماء قبل ظهورها وتدعو بها عند المهمات وهی لا تعرف حقیقتها .(16)
ومن هنا اعتمد علیه عبد المطلب فی کفالة الرسول صلّی اللّه علیه وآله فخصّه به دون سائر بنیه وقال:

وصیت من کنیته بطالب	عبد مناف وهو ذو تجارب(17)
بابن الحبیب أکرم الأقارب	بابن الذی قد غاب غیر آئب

فقال أبو طالب:

لا توصنی بلازم وواجب	إنّی سمعت أعجب العجائب
من کل حبر عالم وکاتب	بأن بحمد اللّه قول الراهب

فقال عبد المطلب انظر یا أبا طالب أن تکون حافظاً لهذا الوحید الذی لم یشمّ رائحة أبیه ولم یذق شفقة أمّه انظر أن یکون من جسدک بمنزلة کبدک فإنّی قد ترکت بنیَّ کلّهم وخصصتک به فانصره بلسانک ویدک ومالک فإنّه واللّه سیسودکم ویملک ما لا یملک أحد من آبائی هل قبلت وصیّتی؟ قال: نعم قد قبلت واللّه علی ذلک شاهد.
فقال عبد المطلب: مُدّ یدک، فمدّ یده وضرب عبد المطلب بیده علی ید أبی طالب ثم قال عبد المطلب: الآن خفف علیَّ الموت، ولم یزل یُقبّله ویقول: أشهد أنّی لم أرَ أحداً أطیب ریحاً منک ولا أحسن وجهاً .(18)
لم ینصّ عبد المطلب علیه بالوصیة لمحض أنّه شقیق أبیه عبد اللّه فلقد کان الزبیر یشارک أبا طالب فی ذلک وإنّما هو لکفایته لتلک المرتبة القدسیة فقد صاغه المهیمن سبحانه متأهّلاً لحمل النوامیس الإلهیة (شدید بأعباء الخلافة کأهله).
فاجتمعت فیه القابلیة الذاتیة والمعدات المفاضة علیه من سلفه الطاهر ومن الأوصیاء الماضین وتأکّدت بمصاحبة النبیّ الأعظم (صلی اللّه علیه وآله وسلم) آناء اللیل وأطراف النهار فلا یکاد یفارقه آناً ما وبمشهد منه الإرهاصات النبویة والإفاضات الإلهیة المکهربة للمواد اللائقة.
فرح أبو طالب بهذه الحظوة من أبیه العطوف وراح یدّخر لنفسه السعادة الخالدة بکفالة نبیّ الرحمة فقام بأمره

وحماه فى صغره بماله وجاهه من اليهود والعرب وقريش وكان يؤثره على أهله ونفسه وكيف لا يفعل هذا وهو يشاهد من ابن أخيه ولما يبلغ التاسعة من عمره هيكل القدس يملأ الدست هيبة ورجاجة أكثر ضحكه الابتسام ويأنس بالوحدة أكثر من الاجتماع وإذا وضع له الطعام والشراب لم يتناول منه شيئاً إلاّ قال باسم الله الأحد وإذ فرغ من الطعام حمد الله وأثنى عليه وإن رصده فى نومه شاهد النور يسطع من رأسه إلى عنان السماء .(19)
وكان يوماً معه بذى المجاز فعطش أبو طالب ولم يجد الماء فجاء النبىّ (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى صخرة هناك فركلها برجله فنبع من تحتها الماء العذب (20)وزاد على ذلك توفّر الطعام فى بيته حتى أنّه يكفى الجمع الكثير إذا تناول النبى منه شيئاً .(21)
وهذا وحده كاف فى الإذعان بأن أبا طالب كان على يقين من نبوّة ابن أخيه (صلى الله عليه وآله وسلم) أضف إلى ذلك قوله فى خطبته لما أراد أن يزوّجه من خديجة (وهو والله بعد هذا له نبؤٌ عظيم وخطر جليل) .(22)
وكان يقول فى وصيّته لقريش عند الوفاة: يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب واعلموا أنّكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ولا شرفاً إلا أدركتموه فلكم به على الناس الفضيلة ولهم به إليكم الوسيلة والناس لكم حرب وإلى حربكم إلب وإنّى أوصيكم بتعظيم هذه البنية فإن فيها مرضاة للربّ وقواماً للجأش وثباتاً للوطأة صِلُوا أرحامكم ولا تقطعوها فإن صلة الرحم منسأة للأجل وزيادة فى العدد واتركوا البغى والعقوق ففيهما شرف الحياة والممات وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة فإن فيهما محبّة للخاص ومكرمة للعام.
وإنّى أوصيكم بمحمد خيراً فإنّه الأمين فى قريش والصديق فى العرب كأنّى انظر إلى صعاليک العرب وأهل الوبر والأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدَّقوا كلمته وعظّموه فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ودورها خراباً وأعظمهم عليه أحوجهم إليه وأبعدهم أقربهم عنده قد محضته العرب ودادها وأصغت له فؤادها وأعطته قيادها.
دونكم يا معشر قريش المحافظة على ابن أخيكم وكونوا له ولاة ولحزبه حماة والله لا يسلک أحد منكم سبيله إلا سعد ولا يأخذ بهدية إلا رشد ولو كان للنفس مدّة وللأجل تأخير لكفيت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهى.
وأنشد:

أوصى بنصر النبىّ الخير مشده	علياً ابنى وشيخ القوم عباساً
وحمزة الأسد الحامى حقيقته	وجعفراً أن يذودا دونه الناسا
كونوا فداءً لكم أمى وما ولدت	فى نصر أحمد دون الناس أتراسا (23)

ولما جاء العباس إلى أبى طالب يخبره بتألّب قريش على معاداته قال له أن أبى أخبرنى أن الرسول على حقّ ولا يضرّه ما عليه قريش من المعادات له وإن أبى كان يقرأ الكتب جميعاً وقال إن من صلبى نبياً لوددت أنّى أدركته فآمنت به فمن أدركه فليؤمن به .(24)
واستشهاده بكلمة أبيه القارئ للكتب الإلهية مع أنه كان يقرؤها مثله يدلّنا على تفنّنه فى تنسيق القياس وإقامة البرهان على صحّة النبوة وأن الواجب اعتناق شريعته الحقّة.
أمّا هو نفسه فعلى يقين من أنّ رسالة ابن أخيه خاتمة الرسالات وهو أفضل من تقدّمه قبل أن يشرق نور النبوّة على وجه البسيطة ولم تجهل لديه صفات النبى المبعوث وعلى هذا الأساس أخبر بعض أهل العلم من الأحبار حينما أسرَّ إليه بأنّ ابن أخيه الروح الطيّبة والنبىّ المطهّر على لسان التوراة والإنجيل فاستكتمه أبو طالب الحديث

كى لا يفشوا الخبر، ثم قال له: إن أبى أخبرنى أنه النبىّ المبعوث وأمر أن أستر ذلک لئلاّ يغرى به الأعادى.
ولو لم يكن معتقداً صدق الدعوة لما قال لأخيه حمزة لما أظهر الإسلام (25)

فصبراً أبا يعلى على دين أحمد	وكن مظهراً للدين وفقت صابرا
وحط من أتى بالدين من عند ربه	بصدق وحق لا تكن حمز كافرا
فقد سرّنى إذ قلت أنّک مؤمن	فكن لرسول الله فى الله ناصرا
ونادِ قريشاً بالذى قد أتيته	جهاراً وقل: ما كان أحمد ساحرا
نبىّ أتاه الوحى من عند ربّه	فمن قال لا، يقرع بها سنّ نادم

ومما خاطب بها النجاشى:

تعلم خيار الناس أن محمداً	وزير لموسى والمسيح ابن مريم
أتى بالهدى مثل الذى أتيا به	فكل بأمر الله يهدى ويعصم
وإنّكم تتلونه فى كتابكم	بصدق حديث لا حديث المترجم
فلا تجعلوا لله ندّاً وأسلموا	فإن طريق الحقّ ليس بمظلم

وقال :

اذهب بنىّ فما عليک غضاضة	اذهب وقر بذاک منک عيونا
والله لن يصلوا إليک بجمعهم	حتى أوسّد فى التراب دفينا
ودعوتنى وعلمت أنّک ناصحى	وصدقت ثم وكنت قبل أمينا
وذكرت ديناً لا محالة أنّه	من خير أديان البرية دينا(26)

وبعد هذه المصارحة هل يخالج أحداً الريب فى إيمان أبى طالب؟ وهل يجوز على من يقول إنا وجدنا محمداً كموسى نبيّاً إلاّ الاعتراف بنبوّته والإقرار برسالته كالأنبياء المتقدّمين وهل يكون إقرار بالنبوة أبلغ من قوله (فأمسى ابن عبد الله فينا مصدّقاً) وهل فرق بين أن يقول المسلم: أشهد أن محمداً رسول الله وبين أن يقول :

وإن كان أحمد قد جاءهم	بصدق ولم يتهم بالكذب

أو يعترف الرجل بأن محمداً كموسى وعيسى جاء بالهدى والرشاد مثلما أتيا به ثم يحكم عليه بالكفر، وهل هناک جملة يعبر بها الإسلام أصرح من قول المسلم:

وذكرت ديناً لا محالة أنّه	من خير أديان البرية دينا(27)

كلاّ، ولو لم يعرف أبو طالب من ابن أخيه الصدق فيما أخبر به لما قال له بمحضر قريش ليريهم من فضله وهو به خبير وجنانه طامن: يا ابن أخى الله أرسلک؟ قال نعم، قال أبو طالب: إن للأنبياء معجزة وخرق عادة فأرنا آية، قال النبىّ (صلى الله عليه وآله وسلم): يا عمّ ادعِ تلک الشجرة وقل لها: يقول لک محمد بن عبد الله اقبلى بإذن الله

فدعاها أبو طالب فأقبلت حتى سجدت بين يديه ثم أمرها بالانصراف فانصرفت.
فقال أبو طالب: أشهد أنّک صادق، ثم قال لابنه: يا علىّ ألزمه وفى بعض الأيام رأى علياً يصلّى مع النبىّ فقال له: يا بنى ما هذا الذى أنت عليه، قال يا أبة آمنت بالله وبرسوله وصدقت بما جاء به ودخلت معه واتبعته فقال أبو طالب: أما إنّه لا يدعوک إلا إلى خير فلا يدعوک إلا إلى خير فألزمه .(28)
فهل يجد الباحث بعد هذا ملتحداً عن الجزم بأن شيخ الأبطح كان معتنقاً للدين الحنيف ويكافح طواغيت قريش حتى بالصلاة مع النبىّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وإن أهمله فريق من المؤرخين رعاية لما هم عليه من حُبّ الوقيعة فى أبى طالب ورومیه بالقذائف حنقاً على ولده أمير المؤمنين (عليه السلام) الذى لم يتسنّى لهم أى غميزة فيه فتحاملوا على أمّه وأبيه إيذاءاً له وإكثاراً لنظائر من يرمون إكباره وإجلاله ممن سبق منهم الكفر وحيث لم يسعهم الحطّ من كرامة النبىّ والوصى عمدوا إلى أبويهما الكريمين فعزّوا إليهما الطامات وستروا ما يؤثر عنهما من الفضائل إيثاراً لما يروقهم إثباته.
يشهد لذلک ما ذكره بعض الكتّاب عند أسرى بدر فإنّه قال: وكان من الأسر عمّ النبىّ وعقيل ابن عمّه (أخو علىّ) .(29)
فلو كان غرضه تعريف المأسور لكان فى تعريف عقيل بأنّه ابن عم النبىّ كفاية كما اكتفى فى تعريف العبّاس به ولم يحتجّ أن يكتب بين قوسين (أخو علىّ) وأنت تعرف المراد من ذكر هذه الكلمة بين قوسين وإلى أى شىء يرمز بها الكاتب ولكن فاته الغرض وهيهات الذى أراد ففشل.
ثم جاء فريق آخر من المؤرخين يحسبون حصر المصادر فى ذوى الأغراض المستهدفة وإن ما جاءوا به حقائق راهنة فاقتصروا على مروياتهم مما دبّ ودرج وفيها الخرافات وما أوحته إليهم الأهواء والنوايا السيئة ومن هنا أُهملت حقائق ورُويت أباطيل.
فعزوا إلى أبى طالب قوله: إنّى لا أحبّ أن تعلونى استى ثم رووا عنه أنه قال لرسول الله: ما هذا الدين؟ قال رسول الله: دين الله ودين ملائكته ورُسله ودين أبينا إبراهيم بعثنى الله به إلى العباد وأنت أحقّ من دعوته إلى الهدى وأحقّ من أجابنى.(30)
فقال أبو طالب إنّى لا أستطيع أن أفارق دينى ودين آبائى والله لا يخلص إليک من قريش شىء تكرهه ما حييت .(31)
فحسبوا من هذا الكلام أن أبا طالب ممن يعبد الأوثان كيف وهو على التوحيد أدلّ وجوابه هذا من انفس التورية وأبلغ المحاورة فإن مراده من قوله لرسول الله عقيب قوله أنت أحقّ من دعوته: إنّى لا أستطيع أن أفارق دينى ودين آبائى.
الاعتراف بإيمانه وإنّه باق على حنيفة إبراهيم الخليل التى هى دين الحق ودينه ودين آبائه ثم زاد أبو طالب فى تطمين النبىّ بالمدافعة عنه مهما كان باقياً فى الدنيا.
نعم من لا خبرة له بأساليب الكلام وخواص التورية يحسب أن أبا طالب أراد بقوله: إنّى لا أفارق دينى.. الخ الخضوع للأصنام فصفق طرباً واختال مرحاً.
وجاء آخر يعتذر عنه بأن شيخ الأبطح كان يراعى بقوله هذا الموافقة لقريش ليتمّكن من كلاءة النبىّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وتمشية دعوته.
نحن لا ننكر أن أبا طالب كان يلاحظ شيئاً من ذلک ويروقه مداراة القوم للحصول على غايته الثمينة كى لا يمسّ كرامة الرسول القوم للحصول على غايته الثمينة كى لا يمسّ كرامة الرسول سوء لكنّا لا نصافقهم فى كل ما

يقولونه من انسلاله عن الدين الحنيف انسلالاً باتاً، فإنه خلاف الثابت من سيرته حتى عند رواة تلكم المخزيات ومهملى الحقائق الناصعة حذراً عمّا لا يلائم خطتهم فلقد كان يراغم الطواغيت بما هو اعظم من التظاهر بالإيمان والائتمام بالصلاة مع النبىّ (صلى الله عليه وآله وسلم).

وإن شعره الطافح بذكر النبوة والتصديق بها سرت به الركبان وكذلك أعماله الناجعة حول دعوى الرسالة.

ولولا أبو طالب وابنه	لما مثل الدين شخصاً فقاما
فذاک بمكة آوى وحاما	وهذا بيثرب جسّ الحماما
تكفل عبد مناف بأمر	وأودى فكان علىّ تماما
فلله ذا فاتح للهدى	ولله ذا للمعالى ختاما
وما ضرّ مجد أبى طالب	عدوّ لغى وجهول تعامى

وخلاصة البحث إن أبا طالب حلقة الوصل بين سلسلة الوصاية عن الرسل الماضيين حتى أوصلها إلى النبىّ الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) وكما تنتهى به الحلقات الغابرة فإن بولده أمير المؤمنين تبتدأ سلسلة الخلافة المحمدية ثم تتواصل فى بنيه الأطهرين حتى تنتهى إلى حجّة العصر وناموس الدهر الحجّة المهدىّ المنتظر عجّل الله فرجه.

فبيت أبى طالب بيت ضرب على النبوة سرداقه، وبنى على الوصاية أطرافه، ونيط بالدين أطنابه، وأسدل على العلم سجافه ووطدت على التقوى أوتاده.

إذاً فما ظنّک بمن ضمه هذا البيت وتربّى فيه فهل يعدوه أن يكون إما داعية إلى الهدى أو مهذباً للبشر أو معلماً للنواميس الإلهية أو هادياً إلى سبل السلام أو قائداً إلى الصالح العام.

نعم لا يجوز أن يكون من حواه هذا البيت إلا كما وصفناه بعد أن كان نصب عينه العلام الإلهية وملؤ أذنه الوحى والإلهام وحشو فؤاده نكن من عالم الغيوب ومعه التمارين المسعدة والتعاليم المصلحة.

وقد لبّى هتاف الدعوة زوج شيخ الأبطح التى شهد لها الرسول الأمين بأنّها من الطاهرات الطيّبات المؤمنات فى جميع أدوار حياتها، والعجب ممن اغترّ بتمويه المبطلين فدوَّن تلک الفرية زعماً منه أنّها من فضائل سيّد الأوصياء وهى أن فاطمة بنت أسد دخلت البيت الحرام حاملة بعلىّ بن أبى طالب فأرادت أن تسجد لهبل فمنعها علىّ (عليه السلام) وهو فى بطنها.(32)

وقد فات المسكين أن فى هذه الكرامة التى حسبها طعناً بتلک الذات المبرأة من رجس الجاهلية ودنس الشرک وكيف يكون أشرف المخلوقات بعد خاتم الأنبياء المتكون من النور الإلهى مودعاً فى دعاء الكفر والجحود.

كما إنّهم أبعدوها كثيراً عن مستوى التعاليم الإلهية ودروس خاتم الأنبياء الملقاة عليها كل صباح ومساء وفيها ما فرضه المهيمن سبحانه على الأمة جمعاء من الإيمان بما حبا ولدها الوصىّ بالولاية على المؤمنين حتى اختص بها دون الأئمة من أبنائه وإن كانوا نوراً واحداً وطينة واحدة ولقد غضب الإمام الصادق (عليه السلام) على من سمّاه أمير المؤمنين وقال: مَه لا يصلح هذا الاسم إلاّ لجدّى أمير المؤمنين.

فرووا أنّ النبىّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وقف على قبرها وصاح ابنک علىّ لا جعفر ولا عقيل، ولما سئُل عنه أجاب أن الملک سألها عمن تدين بولايته بعد الرسول فخجلت أن تقول ولدى .(33)

أمن المعقول أن تكون الذات الطاهرة الحاملة لأشرف الخلق بعد النبىّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بعيدة عن تلک التعاليم المقدسة، وهل فى الدين حياءً، نعم أرادوا أن يزحزحوها عن الصراط السوى ولكن فاتهم الغرض

وأخطأوا الرمية.

فإن الصحيح من الآثار ينصّ على ان النبىّ لما أنزلها فى لحدها ناداها برفيع صوت: يا فاطمة أنا محمد سيّد ولد آدم ولا فخر فإذا أتاك منكر ونكير فسألاك من ربّك؟ فقولى الله ربّى ومحمد نبيّى والإسلام دينى والقرآن كتابى وابنى إمامى ووليّى، ثم خرج من القبر وأهال عليها التراب .(34)

ولعل هذا خاص بها ومن جرى مجراها من الزاكين الطيّبين كفاطمة الزهراء (عليها السلام) فإن الحديث ينصّ على أنّها لما سألها الملكان عن ربّها قالت الله ربّى، قالا ومن نبيّك، قالت: أبى، قالا: ومن وليّكِ، قالت: هذا القائم على شفير قبرى علىّ بن أبى طالب .(35)

وإلاّ فلم يعهد فى زمان الرسالة تلقين الأموات بمعرفة الولى بعد النبى فإن غاية ما جاء عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): لقّنوا موتاكم لا إله إلاّ الله فإنّها تهدم الخطايا.

والخدشة فى هذا الحديث واضحة فإن الاعتراف بالرسالة كالاعتراف بالتوحيد متلازمان، وتلقين الأموات إنّما هو لأجل أن يكون العبد الراحل عن هذه الدنيا باقياً على ما هو عليه فيها حتى فى آخر المنازل، فالإقرار بإحدى الشهادتين لا ينفكّ عن الأخرى، فهذا الحديث الناصّ على الإقرار بكلمة التوحيد مع السكوت عن الشهادة بالرسالة لنبىّ الإسلام لا نعرف سنده ليكون شاهداً ودليلاً.

وعلى كلّ فتخصيص زوج أبى طالب بذلك التلقين كالتكبير عليها أربعين من خصائصها لأن التكبير على الأموات خمس.

وبالرغم من هاتيك السفاسف التى أرادوا بها الحطّ من مقام والده أمير المؤمنين (عليه السلام) أظهر النبىّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أمام الأمّة ما أعرب عن مكانتها من الدين وأنّها بعين فاطر السماء سبحانه حين كفّنها بقميصه الذى لا يبلى لتكون مستورة يوم يعرى الخلق وكان الاضطجاع فى قبرها إجابة لرغبتها فيه عندما حدّثها عن أحوال القبر وما يكون فيه من ضغط ابن آدم.

ولولا التنازل لرغبتها لما كان لاضطجاعه (صلى الله عليه وآله وسلم) معنى فإن المؤمن المعترف بولاية أمير المؤمنين لا تصيبه الضغطة كما فى صحيح الأثر فكيف بالوعاء الحامل لمن تكون من النور الأقدس.

فتحصل أن هذا البيت الطاهر بيت أبى طالب بيت توحيد وإيمان وهُدى ورشاد وإن من حواه البيت رجالاً ونساءً كلّهم على دين واحد منذ هتف داعية الهُدى وصدع بأمر الرسالة غير أنّهم بين من جاهر باتباع الدعوة وبين من كتم الإيمان لضرب من المصلحة.

وقد لبّت هذا الهتاف أم هانى بنت أبى طالب فكانت من السابقات إلى الإيمان كما عليه صحيح الأثر وفى بيتها نزل النبىّ (صلى الله عليه وآله وسلم) من المعراج وهو فى السنة الثالثة من البعثة وحدّثها بأمره قبل أن يخرج إلى الناس وكانت مصدقة له غير أنّها خشيت تكذيب قريش إيّاه وعليه فلا يعبأ بما زعم من تأخّر إسلامها إلى عام الفتح سنة ثمان من الهجرة.

وكانت وفاتها إمّا فى أيّام النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) كما فى مناقب ابن شهراشوب ج1 ص110 وأمّا فى خلافة معاوية كما فى تقريب التهذيب لابن حجر ص620 وحينئذٍ فليست هى المعنيّة بما فى كامل الزيارة لابن قولويه ص96 وأقبلت إليه بعض عمّاته تقول: اشهد يا حسين لقد سمعت قائلاً يقول:

وإن قتيل الطف من آل هاشم	أذلّ رقاباً من قريش فذلت

المصادر :

1- مناقب ابن شهراشوب (ج1 ـ ص106) وكشف الغمة للإربلى ص6

2- السيرة الحلبية (ج1 ـ ص20).

3- الروض الآنف للسهيلى (ج1 ـ ص8).

4- السيرة الحلبية (ج1 ـ ص9 وص19).

5- صبح الأعشى (ج1 ـ ص211).

6- إثبات الوصية للمسعودى ص75 /الروض الآنف (ج1 ـ ص6).

7- هذا حاصل أحاديث ذكرها المجلسى فى البحار (ج6 ـ ص6) و(ج9 ـ ص8).

8- من قصيدة للعلاّمة الحجّة السيد محمد حسين الكيشوان رحمه الله.

9- البحار (ج9 ـ ص31).

10- مرآة العقول (ج1 ـ ص362).

11- البحار (ج9 ـ ص29).

12- البحار ج35 ص138 و139.

13- إكمال الدين ص102.

14- المصدر السابق ص104.

15- الدرجات الرفيعة للسيد علىّ خان بترجمة أبى طالب.

16- روضة الواعظين للفتال ص69.

17- السيوطى فى شرح شواهد المغنى ص135 مصر، / ابن حجر فى الإصابة ج4 ص115 / الحاكم النيسابورى فى المستدرک ج3 ص108 عن محمد بن إسحاق.

18- مرآة العقول ج1 ص268.

19- مناقب ابن شهراشوب ج1 ص37.

20- السيرة الحلبية ج1 ص139.

21- السيرة الحلبية ج1 ص139.

22- السيرة الحلبية ج1 ص139.

23- تاريخ الخميس ج1 ص339 وطراز المجالس للخفاجى ص217 وثمرات الأوراق للحموى بهامش المستظرف ج2 ص10 وبلوغ الإرب ج1 ص327 الطبعة الأولى وأسنى المطالب لزينى دحلان ص5.

24- الحجة على الذاهب ص65.

25- المصدر السابق ص71.

26- الزمخشرى فى الكشاف ج1 ص448 طبع سنة 1308هـ وابن دحلان فى السيرة النبوية بهامش السيرة الحلبية ج1 ص97 طبع سنة 1329هـ.

27- شرح النهج لابن أبى الحديد ج3 ص309.

28- تاريخ الطبرى ج2 ص214.

29- تاريخ الأمة العربية للمقدادى ص84 مطبعة الحكومة بغداد سنة 1939م.

30- السيرة الحلبية ج1 ص306.

31- الطبرى ج1 ص213 وابن الأثير ج2 ص21.

32- نهاية الإرب للنويرى ج2 ص341 /ابن جرير الطبرى فى التاريخ ج6 ص89 وابن الأثير فى الكامل ج3 ص158 وأبو الفدا فى المختصر ج1 ص170 وابن كثير فى البداية ج7 ص332 كما فى النهاية.

33- خصائص أمير المؤمنين للسيد الرضى وفى طريق الحديث محمد ابن جمهور العمى الضعيف بنص النجاشى والكشى وابن الغضائرى والعلامة الحلى.

34- مجالس الصدوق ص189 مجلس51.

35- الإصابة لابن حجر ج2 ص478 بترجمة عروة بن مسعود.